الغرائب النفسية

بازاء الروحانية الزائفة والروحانية الحقة

بحث انتقادي فلسفي

للاب شرل ايبلا اليسوعي

٢

تعليل ما يروى عن مناجاة الارواح

الاسباب الخارجة عن الطبيعة

واذا كان في اعمال السپيريتسم ما لا يستطاع تعليله طبيعياً فلا بدّ ، كما بيّن الابوان مونجسان ومنسى [1] ، من نسبته الى الارواح ولكن ليس الى ارواح الاموات ، على ما يزعم اهل الروحانية الزائفة ، بل الى الارواح الشريرة ، اي الابالسة والشياطين .

اجل لا نكبر انّ في استطاعة الارواح ان يناجوا الاحياء بسماح من الله . وفي تاريخ الكنيسة ، وسير القديسين ، ادلة واقعية راهنة تثبت هذه الحقيقة . ولكن شتّان ما بين الثريا والثرى ، وشتّان ما بين الوقائع هذه وتلك التي ينسبها اهل السپيريتسم الى ارواحهم الموهومة . ولا يقبل العقل ان يترك الله ارواح الموتى ، بارّة كانت ام هالكة ، العوبةً في ايدي البشر ، يُصعدونها أنّى شاؤوا ، بطرق صبيانية بل بعض الاحيان خلاعية ، ويلقون عليها اسئلة باطلة فضولية ، فتجيبهم غالباً بما نجلّ اسخفَ القول من الاحياء ان يظنه او يفوه به . فقد زعم الوسطاء انهم استحضروا اغوسطينوس ، وجان درك ، وغليليو وغيرهم ممن امسوا ، بالخراقات التي يعزوها اليهم مناجو ارواحهم ، بلهاً حقاً ، بعد ان كانوا طيلة حياتهم على الارض زينة البشرية وفخرها بزانتهم وحكمتهم وعبقريّتهم . ولقد صدق الدكتور ستانلي هول ، رئيس جامعة

---

١) ص ٣٩٠ و ٣٥٥ — ٣٥٨

كلارك اذ قال[1] : « ان تبشير السر اوليفر لودج بمذهب مناجاة الارواح احتقار للعلم (*affront to science*) » وان حياة الارواح حسبما ادعاه « تشبه حياة ضعاف العقول في البيمارستان. »

كذلك لا ينبغي ان ندخل الابالسة في كل امر. بل لا مشاحة ان تدخلهم فيما بين البشر ، على سبيل خارج عن النواميس الطبيعية ، قد خفّ وندر منذ مجيء الربّ المخلّص. ولكن اي صعوبة في ان يسمح الله لاسباب له ان يعرفها ويستصوبها ، بان يأتوا اعمالاً تعجز عنها الطبيعة المنظورة ؟

هذا ما تُثبته ، فضلاً عن الايمان ، « الطريقة التجريبية » عينها التي لها الشأن الخطير لدى « المقتطف » حتى تكاد تكون قاعدة معتقد اصحابه الوحيدة[2]. فان كان الانجيل الطاهر سفراً منزلاً ، يجب علينا ان نؤمن بمضمونه لانه وحيٌ من الحقّ سبحانه وتعالى ، فهو ايضاً ، حتى في نظر العقل المجرّد ، تاريخ صادق ، قلّما شهد النقد التاريخي النزيه لغيره بما شهد له[3] . فان ثبت ما جاء فيه ثبت ايضاً وجود الشياطين ومزاولتهم اعمالاً تخرج عن نواميس الطبيعة المنظورة . ولا سبيل الى انكار ذلك الّا على وجه من اثنين . فإما تُنفى تاريخية الانجيل واذ ذاك قل السلام على « الطريقة التجريبية » التي ليس النقد التاريخي سوى فرع منها . واما تُقرّ تاريخية الانجيل وتُنكر صحة ما جاء فيه من الحوادث الخارقة الطبيعة لأنها خارقة الطبيعة ، فهي اذاً محالة . فلا يبقى عندئذٍ مجالٌ للشكّ انّ « النظر المحض المبني على الحدس » ، الذي يُعبّر به الدكتور صروف (ص ١١٥) ذوي الروحانية الحقة وذوي الايمان ، يتغلّب ايضاً على ذوي « الطريقة التجريبية » فيهدم ما بناه الاختبار والامتحان.

ومن الغريب ان الدكتور صروف لم يتنبّه (ص ٢١٠) في الكتاب المقدس سوى مثل عرّافة عين دور[4] ، الذي فيه من الغموض ما لا يخفى. ولو

١) ذُكر في «رسائل الارواح» ص ١٥٧ ٢) راجع مقدمة رسائل الارواح ص ٦
٣) راجع ابحاث المرحوم الاب انطون رباط اليسوعي في الانجيل الشريف — المشرق (١٤ [١٩١١] ٢٤١، ٢٢٢، ٤١٢، ٥٩٤، ٦٦٣، ٨٢٩، ٩١٠)
٤) سفر الملوك الاول : ٢٨

طالع ، لا اقول في الاصل ، ولكن لدى احد الثقات من المفسرين الحديثين ، ازاء الآباء والشارحين واللاهوتيين في هذا الموضع الكتابي[1] ، لما ارسل جزافاً قوله (ص ٢١١): « ان اقلّ المفسرين ميلاً الى التأويل قالوا ان ظهور صموئيل كان باعجوبة خصوصية » بل تحقق ان فريقاً منهم ينسب ظهوره الى خدعة او انخداع من العرّافة.

الطريقة الاختبارية النقدية — الروحانية الحقة

يلوم الدكتور صرّوف (ص ٨٤) انصار السپيريتسم على ادعائهم ان ظهور الارواح ومناجاتها من الادلّة القاطعة على خلود النفس ووجود عالم الارواح، وعلى اتهامهم من يخالفهم بانه منكر لوجود النفس جاحد للحقائق الدينية.

ولقد اصاب في اللوم. فسيان للروحانيّة الحقة ، صحّت مناجاة الارواح ام كذبت . فان صحّت جاءت تؤيد نتائج الفلسفة الحقة ، وتصريحات الايمان الكاثوليكي وكل الاديان في وجود روح الانسان وخلودها . وان كذبت فالروحانية بغنىً عنها بما يدعمها ، ليس من شواهد الوحي فحسب ، بل من الادلّة العقلية الراهنة القاطعة . فان كان هذا فعلامَ يشكّ صاحب « رسائل الارواح »بروحانية النفس وبخلودها ، على قدر ما يشكّ بترهات اهل السپيريتسم ، إلّم نقل اكثر ؟ يُقرّ ، رحمه الله بخطورة الموضوع اذ يقول (ص ١٥٥) :

« انه من ام المواضيع . وهل من موضوع ام من موضوع نفس الانسان وما يحلّ بها بعد الموت ؟ ».

وايضاً (ص ١٨٠):

لمّا اعلنت السيدة ايبركان انها تعطي ٢٥٠٠ ريال للوسيط الذي يُثبت ثبوتاً ينفي كل ريب انه يستحضر روحاً من ارواح الموتى . . . . تلقّينا ذلك بالمسرّة لانه اذا استطاع احد ان يُثبت ذلك انجلت مسألة من اغمض المسائل.»

وكأني بالكاتب المرحوم ، بازاء هذه المسألة لايقف وقفة الناظر غير المكترث بل يردّد صدى قول الربّ في الانجيل (متى ١٦: ٢٦) : « ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ام ماذا يُعطي الانسان فداء عن نفسه ؟ » فيضطرب

(١) راجع (Hummelauer, *Commentarius in Libros Samuelis, Parisiis, Lethielleux, p. 242 - 251*)

ويتوجس خوفاً ، ولاسيما عند شعوره بدنوّ الاجل المحتوم ويبحث بلهفة شديدة عما عسى يكون مآله النهائي ، اذ يقول (ص ١١٩) :

« اين تذهب بعد ما تموت ؟ او ليس لنا نفوس وكل ما فينا اجسام تتولد وتنمو ثم تموت وتنحلّ وترجع عناصرها الى الارض ؟ . . . هذه مسألة المسائل ومعضلة الفلاسفة . فما من احد بلغ الخمسين او الستين الّا وقف واستوقف وقال : الى اين نحن مسوقون ؟ . . . وما معنى هذا التعب وهذا الجهاد ؟ »

وايضاً (ص ٢١٠) :

« ان البحث عمّا وراء الحياة الدنيا مما يقبل اليه النفس ولا سيما اذا لاح بياض الشيب في اللمم وقاربت شمس الحياة الى المغيب . »

ومن هذا كله ومن اغلب ما ورد في « رسائل الارواح » يتضح ان المنشئ المرحوم ، ان كان له بعض الامل في الحياة بعد الموت ، فهو يعلّقه على نتيجة البحث في مناجاة الارواح . وذلك بالرغم من انكاره لصحتها ، قلّما يكون نوعاً ، وبالرغم من لومه اتباعها على نسبة الكفر الى اعدائها ، كما مرّ بك .

اما تأكيدات الفلسفة الصادقة عن روحانية نفس الانسان فكأنه لا يحفل بها البتة . قال نقلاً عن مجلة السينتفك اميركان (ص ٢٢٦) :

ان في العالم نحو ١٥٠٠ مليون نسمة سيدركهم الموت عاجلاً او آجلاً لكنهم يجهلون كل الجهل (!) مصيرهم بعده . . . فالحياة والموت لا يزالان سرّاً من الاسرار ولغزاً من الالغاز التي لم يفتح بها على مخلوق . »!!!

وقال من ذاته (ص ١٨٠) :

« مسألة (الروحانية والخلود) يُسلّم بها كثيرون بطريق الايمان والثقة بما جاء عنها في كتب الاديان ولا ينكرها غيرهم ولكنهم يرتابون في صحتها او يقولون لا ندري وهؤلاء المرتابون وانلا ادريون قد يكونون من اعقل الناس وافضلهم (١ . والمنكرون قد يكونون ايضاً من العلماء الذين لا شبهة في انّ انكارهم لم يتم لأنهم اباحيون (٢ بل لانّ عقولهم لا تستطيع ان تتصوّر وجود غير المادة وخواصّها ، ومن هذه الخواص الحياة والشعور والتعقل (٣ بيد انّ كثيرين من الذين يعترفون بوجود ارواح الموتى والثواب والعقاب هم من افسد الناس سيرةً (٤ وسريرة (٥ . »

---

١) وهل فضلهم يقوم بارتيابهم ولا أدريتهم ؟ ٢) وهل عدم اباحيتهم عائد الى انكارهم ؟

٣) قابل هذا النصّ بما يليه في المتن منقولاً عن « رسائل الارواح » (ص ٩٨) . فيتجلى لك ان موضوع العلم في نظر الدكتور صروف هو ما يدرك بالحواس ليس الّا . ترى اي انسان رأى او سمع او لمس او شمّ او ذاق او تصوّر يوماً بمخيلته « الحياة والشعور

ترى ما عسى يكون سبب ارتياب الدكتور صرّوف في الروحانية من حيث هي نتيجة الفلسفة النفسية العقلية ؟ فهل يكون موافقة الدين الموصى عليها ؟ والحقُّ يقال ان الدين والفلسفة المذكورة يزجيهما الكاتب الفاضل الى حد ان يتوهّم انهما شيء واحد لا يتميز احدهما عن الآخر. من ذلك قوله (ص٩٨):

« اذا كان ذلك من الحقائق المقرَّرة (اي اذا صحّت مناجاة الارواح) فهو من اهم الامور لانه يُخرج اعتقادنا ببقاء النفوس من حيز الايمان بما لا يُدرَك بالحواسّ الى حيز العلم بما يُدرك بها. »

وعلى كل حال فهل فاته انَّ فريقاً لا يُستهان به من اهل السپيريتسم قد حوّلوا فلسفتهم الروحانية الى دين موحىً به من الارواح. او لعله يُوثر ترّهاتها على وحيِ الله عزّ وجلّ ؟

أم يرتابُ في الروحانية الصادقة لانه يتوهّم ان انصارها ليسوا من العلماء الاحقاء ؟ على اننا نجله عن ان يحتقر ، لا نقول علم ارسطو والاكويني وغليليو وباكون، بل علم پاسكال وديكرت ولايبنيتز ويوصويت وپاستور ونيومَن الخ. فانهم ، والكثيرين من امثالهم وعلى معتقدهم ، يجارون اشهر « مشاهير العلماء » الذين شُحنت « رسائل الارواح » باقاويلهم.

وعندي ان اهم الاسباب لارتياب الدكتور صرّوف هو كرهه لما وراء الطبيعة فالظاهر انه من اللاأدريين الوضعيين (*Positivistes agnostiques*) الذين لا يعتقدون الّا بما يقع تحت الحواسّ او المجهر . وقد ذكرنا له فيما سبق ما يؤيد زعمنا هذا حيث قال : اذا ثبت السپيريتسم بالبرهان « خرج اعتقادنا ببقاء

والتعقل » ؟ لعمري اننا ندرك مفاعيلها فينا بضمائرنا ، وفي غيرنا بحواسّنا . امّا ذات الحياة والشعور والتعقل وكنهها فلا يدركها الّا عقلنا الروحي مستعيناً بمدركات الضمير المباشر والحواس . وكذا قل عن ادراك كل ما هو مجرّد عن المادة ، ان بذاته كالله عزّ وجلّ والروح ، وان بفعل العقل كالبياض والحرارة . فباني بحواسي ادرك الابيض والحارّ ، وبعقلي المجرّد البياض والحرارة.

٤) ليس فساد سيرتهم نتيجة اعترافهم بالروحانية والخلود. — غريب كيف فات المثنّي الحذق ان الانسان ، بما انه حرّ ، قد لا ينطبق سيره على عمله وانَّ حرّية الاختيار ، وهي من ارضح الادلة على روحانية النفس ، لا تُقيَّد بقواعد المنطق.

٥) وهل السريرة هي من مدركات الحواس ايضاً ؟ فكيف يُحكم في امرها ، بدون تعليل العقل الروحي لظواهرها ؟

النفوس من حيز الايمان بما لا يُدرك بالحواسّ الى حيز العلم بما يدرك بها وجُعل حقيقة علمية.» ولا عجب فقد قال (ص ١١٥) :

«لقد كان البحث في النفس وما وراء الطبيعة نظرياً محضاً مبنياً على الحدس او على ما قال به اصحاب الاديان وملّـوها. اما الآن (والحمدُ لله على هذه المنة الجديدة!) فاخذت طائفة من العلماء والفلاسفة تبحث في الامور النفسية بحثاً علمياً محضاً مبنياً على التجربة والامتحان» .

وايضاً (ص ٢١٠) :

«اهمل علماء الطبيعة البحث عما وراء الطبيعة لانهم لم يجدوا فيما عرفوه من نواميس المادة ما يدلّ عليه . ولا يُلامون كما لا يلام الباحث في العلوم اللغوية اذا لم يجد فيها شيئاً يدلُّ على خلود النفس ولا الباحث في العلوم القضائية اذا لم يجد فيها شيئاً يدل على وظائف الكبد والطحال.»

ترى هل امعن الدكتور صروف النظر قليلاً في علم مـا وراء الطبيعة ومضمونه قبلما سطر قلمه كل ما ذكرنا له ؟ اجل ليس للغوي ان يبحث مثلاً في المنطق ولكن ليس له ايضاً ان يجهل قواعده فـلا يطبقها على ما يكتشفه . وليس للقـاضي ولا للطبيعي ولا للاختباري النفساني ان يبحثوا في مجملات ما وراء الطبيعة ، ولا من شانهم ان يحدّدوا ويقسّموا العلل ويبسطوا ماهيتها وخواصها العامة وما يُبنى على معرفتها من المبادئ . ولكن هل لهم ان يجهلوا هذه العلل او ان ينكروا مثلاً مبدأ السبب الكافي (*le principe de raison suffisante*) او مبدأ العلة (*le principe de causalité*) . وهل من قوام لعلم ، ايّاً كان ، بدون هذين المبدأين وغيرهما كثير مما يبحث عنه علم ما وراء الطبيعة الذي هو علم الكائن بالاجمال (*Ontologie*) ؟ وهل يمكن القاضي ان يحكم في دعوى دون ان يطبق على وقائعها ما يمده به هذا العلم من المبادئ المتعلقة بالعلل ؟ ام كان يستطيع منشئ المقتطف ، بمعزل عن هذه المبادئ ، ان يُعلّل المرويات عن مناجاة الارواح ؟ وان كان يطبق مبادئ كهذه فكيف يستطيع الى ذلك سبيلاً دون ان يميز علّة المعلول من الحادث الذي انما يسبقه لا يسبّبهُ ؟ وكيف يميزها اذا كان لا يدرك تأثيرها في المعلول ؟ وهل التأثير هذا مما يرى بالعين او يسمع بالاذن او يقع تحت الحواس اية كانت ؟ فلا يبقى الا واحدة من اثنتين : اما ان العلم ، ايّاً كان ، يضحي محالاً ما لم يستمد قواعده الاولى من علم ما وراء الطبيعة كما ومن المنطق ، واما ان العلم لا يقوم بمدركات الحواس وحدها .

ثم اين رأى الدكتور صروف انّ المعتقدين بروحانية النفس وخلودها قد اقتصروا في ابحاثهم على النظر المحض والحدس ولم يلتفتوا الى الامتحان والتجربة ؟ لا حاجة ان نعيد هنا الحجج الراهنة التي تستند اليها هاتان الحقيقتان. وكلُّها يُطبَّق بها مبدأ السبب الكافي على ما يتناوله العقل من مدركات الحواس والضمير . من ذلك ان رأيت ذاتك مندفعاً شديداً الى التمتع بخير حسي ، وقمتَ النفسَ وابعدتها عنه وحرمتها منه ، افليس هذا مما يدل صريحاً ان فيك قوةً هي ارفع ماهيةً من القابلية المادية الحيوانية ، وبمعزلٍ عنها ؟ فان القابلية المذكورة ليس فقط لا تكفي لردعك عن الخير الحسي ، بل بالعكس تدفعك اليه بكل ما فيها من القوة ، لما تجد فيه من الملاءمة لطبعها.

وكذا ايضاً ليس من علةٍ كافية لادراكنا المجرّدات والكليات والروحيات سوى وجود قوّة ، مستقلة عن المادة وارفع منها ، في كل منّا ، وهي النفس الروحية المزدانة بالعقل الروحي.

وقصارى القول ان اعتماد الروحانية الصادقة ليس على الحدس او النظر وحده بل على النظر وعلى الاختبار معاً. وطريقتها هذه تدعى الطريقة الاختبارية العقلية ، وفرع الفلسفة الذي يسير عليها يُدعى الفلسفة النفسية العقلية (*Psychologie rationnelle*) .

وعلى الطريقة عينها مبني حديث الدكتور فُزْدِكْ « فيما بعد الموت » الذي خُتم به (ص ٢٣١ — ٢٣٦) كتاب « رسائل الارواح » وفيه من البراهين اللامعة ما لا يُبقي ، حتى في نظر العقل المجرّد وبمعزل عن الايمان ، ادنى ريب في وجود الاله ، خالق الاكوان ومنظمها ، وروحانية النفس وخلودها . وعندي ان المقال هذا هو امتن ما ورد في المؤلّف الذي وصفناه.

على ان الدكتور فُزْدِكْ هو ، على ما ذكر المنشئ المرحوم ، « واعظ مشهور.» فهو اذن من رجال الدين وذوي الايمان . وقد لا تترك مزيته هذه ، في نظر « العلم المحض المبنيّ على التجربة والامتحان » ، مسوّغاً لبراهينه ، مهما كانت متينة ... افلا ترى ان استعداداً كهذا ، عند البعض من ذوي العلم المذكور ، ضربٌ جديد من الغرائب النفسية ؟